

فَكَانَهَا بَيْتٌ

الرفيق الابيض^(١)

في احد الايام من صيف سنة ١٨٨٠ دخلت باخرة الى ميناء مرسيليا واختلطت
بغيرها من البواخر التي وصلت في ذلك الحين وبعد ما اقلت مرساتها صعد الركاب
الى ظهرها متوقعين صدور الاذن من ادارة المهاجر لنزولهم الى البر . وكان بين
الركاب فتاة في السادسة عشرة من عمرها قد انفردت عن باقي القوم واتكأت الى
جانب السفينة وكانت هيئة هذه الفتاة من اجل ما يتصور للناظر قد اندمجت ذراعاها
كانهما مصنوعتان من العاج وأرسلت احدهما الى جانب جسم معتدل القوام ممتلىء
العضلات وارتفعت الاخرى لتسند رأسه هو مجتمع الحاسن والجمال يغطيه شعر اسود
كالليل الحالك تبرق من تحته عينان كميون المهى قد ترقق فيهما ماء الحسن وزادها
فعلاً في النفوس اهداب طويلة كانها درع من الزرد تمنع تلك العيون عن ارسال
نبلها القاتل الى صدر الناظر . ولم يكن يرى من فم هذه الفتاة سوى خط أحمر
هو لون شفيتها وقد زاده حمرة وجوده في وجهه انقى من بياض الثلج

وكانت عينا الفتاة تنتقلان بسكون من مياه البحر الى بقية المسافرين ثم الى
الشاطئ القريب . ثم تعود فتلتفت الى ورائها باحتراس وتأن كمن ينظر الى افعى
وهو يود الهرب والابتعاد عنها فيتدفق الدم الى وجنتيها بسرعة عظيمة ويصبح
ذلك الوجه النقي البياض شديد الاحمرار كأنه قد جذب اليه كل ما في ذلك الجسم
من الدم . اما سبب ذلك فهو رجل يناهز الخمسين من العمر اسمر اللون لا من اصل
خلقه بل من كثرة الاسفار في البحار والتعرض لحرارة الشمس . اما شعره فلم يكن
فيه واحدة سوداء وله أنف اقنى اشبه بمنقار النسر يفصل بين عينين تكادان لا

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

الضيآء

(٥٤١)

تريان لصغرهما ينبعث منهما شرار الخشونة والشر . اما لباسه فكان بسيطاً وهو واقف الى الجانب الآخر من السفينة بازاء الفتاة فلا يميل نظره عنها حتى اذا نظرت هي الى جهته ادخل يده في جيب صدرته وبرز طرفاً من مسدس يخفيه فيها وكان ذلك هو السبب في وجوم الفتاة وصعود الدم الى وجهها كأن نار المسدس قد الهبت وجنتيها

و بعد قليل اذن الربان للمسافرين في النزول واسرعت الزوارق لتقلهم ونظرت الفتاة الى جهة الرجل فأشار اليها مهدداً بما يدل على انه يقضي عليها باتاع ما اوصاها به . وبعد ان تحقق ذلك رفع يده صندوقاً صغيراً من الجلد واقترب من بعض الزوارق فساوم صاحبها على الاجرة وجلس ثم القى نظرة اخرى فرأى الفتاة قد اقتربت منه فوقف مبتسماً ورفع قبعته باحترام كأنه لم تسبق له معرفة بها وقال يظهر لي اينها السيدة ان ليس في صحبتك احد فهل تسمحين لي ان اوصلك بسلام الى البر . فاجهدت الفتاة نفسها على الكلام وشكرته ثم جاءت فجاست بجانبه . فقال لها لم يكن من موجب لهذا الاحتراس لانه لم ينتبه اليها احد فلم تجبه الا بتنهيد خرج من اعماق صدرها . وفي بضع دقائق بلغ الزورق البر واذا برجل قد تقدم فتبادل مع رفيق الفتاة نظرات سرية ثم قدم لها يده فاخذتها بعد ان ألقت نظرها الى رفيقها وسارت معه الى عربة كانت تنتظرهما فركباها وسارت جيادها تنهب بهما الارض . اما رفيق الفتاة الاول فدفع اجرة الزورق وسار ببطء الى فندق يقرب من الشاطئ وبعد ما استراح هنيهة نادى صاحب الفندق وقال له أليس عندك رسائل باسمي . فقال وما هو اسمك يا مولاي قال ساندو . فقال بلى قد وردت الي رسالة بهذا الاسم صباح اليوم وهما كما . فاخذها ساندو وفتح غلافها بشوق عظيم ثم تبسم حتى بدت نواجذه لانها كانت تحتوي على قراطيس مالية حسبها ساندو فكانت قيمتها عشرين الفاً من الفرنكات اما الرجل الثاني الذي اخذ الفتاة فلم يزل سائراً بها حتى بلعا محطة السكة الحديدية فاتباع تذكرتين له ولها برسم باريس وما كادا يجلسان في احدى عربات القطار حتى سار بهما يقلهما الى تلك المدينة الغناء المعروفة بأمن الدنيا . وبعد اجتياز

المحطة الاولى والثانية نظر الرجل الى الفتاة وقال يظهر يا اماليا انك غير راضية عن هذا السفر وقد بانت دلائل الكد على وجهك فاعلمي ان مثل هذه الدلائل تقف حاجزاً بين مستقبلك وبينك وتحرمك كثيراً من السعادة المكتوبة لك فانصح لك ان تبدي هذا الكد الظاهر عليك بالسرور والانشراح وتأكد ان امامك حياة سعادة لا يشوبها كدر . وكأن الفتاة لم تفهم كلمة واحدة مما قيل لها فرفعت منديلها الى مقلتيها تمسح دمعيتين ترقرتا من آماقها وتنهدت عن كبدي حرى . ولما اجتازا مسافة ثانية قال لها قد اعلمك ساندو على ما اظن بما يجب عليك صنعهُ وازيدك اني ادعى لورنسو فايك ان تدعيني بغير هذا الاسم ويجب ان يعتقد من يرانا ايّاً كان انك اختي واني اخوك واكرر على مسمعك ان في هذا الجيب مسدساً قلبه يدق قلماً تخطى مرماها مستعدة لاستعماله عند اول اشارة تبدو منك لمخالفة الاوامر التي اعطيت لك . وكانت الفتاة اماليا كنعجة تساق الى الذبح لا تفتح فاهها وتتلقى كل ما تؤمر به بتمام الطاعة والخضوع ولا تجيب الا بعبرات كانت تجاهد كثيراً في حبسها وتنهديات تندفع من صدرها بالرغم عنها . ولما بلغا باريس سار لورنسو باماليا الى بيته وبعد ان قدم لها طعاماً وشرباً باعين لها غرقة وقال خذي تمام راحتك ايتها الفتاة وسأطلعك غداً على ما يسرك ويوضح لك شيئاً من السعادة الموضوعة امامك . ولما قال هذا تركها وخرج وجلست تلك المسكينة هنيئة تناجي افكارها وتغلب عليها الحزن فانطرحت على السرير ولم تقوَ مع ضعفها على محاربة سلطان النوم فتغلب عليها وغرقت في سباته العميق . وفي الصباح الثاني ايقظها لورنسو وتبسم لما رأى ان قد عادت اليها حمرة خديها ونضارة وجهها وبعد ان تناولوا طعام الصباح قال لها انك ستسرين كثيراً عند ما تعلمين انك ستصبحين حظيةً لا عظم امراء فرنسا وأوسعهم غنى وشهرة وكفاك ان هذا الامر قد انفق في سبيل الحصول عليك حتى الآن ما يزيد على الثلاثين الفاً من الفرنكات . ولا اشك انك لا تخيين املنا بل تسعين لامتلاك لبي والتسلط على عقله فلا يندم على ما انفق بل يراه قليلاً في جانب ما آتياه من السعادة ويزيدنا خيراً من غناه الوافر . وهاءنذا ذاهب اليه لأعلمهُ

الضيآء

(٥٤٣)

بقدمك ووربما شاء ان يراك اليوم فاستعدي لهذه المقابلة . ولما خرج ورأت اماليا نفسها وحدها اغلقت باب غرفتها ثم جثت على الارض وشخصت يبصرها الى السماء وابتهلت الى الله ان ينجيها من ذلك الضيق ويرحم قلب والدها المسكين وكانت عبراتها المنسجمة تزيد حالتها خشوعاً وصلاتها تأثيراً . وكأن الله قد سمع صلاة تلك الضعيفة فلم يضر وقت طويل حتى عاد لورنسو ولما وقع نظره على اماليا قال لها ان التقادير تمنع اتمام سعادتك في الحال فلا بد من الانتظار لان الامير مريض لم استطع مقابلته وقد منعت الاطباء من الاهتمام بأي امر كان قبل ان يتعافى تماماً . ورأت اماليا في هذا الخبر ما يدل على ان الله قد وجه تدبيره الى استجابة تضرعها فأخفت عن لورنسو سروراً عظيماً طمخ به فؤادها وابرق في عينها

كان قبل تاريخ ما ذكرناه بنحو ثماني سنوات ان سيدة من شرفاء الفرنسيين تدعى الكنتية ريمي خرجت من بلادها للتنزه والسياحة وبعد ما جابت اشهر اقطار المعمور عادت الى ايطاليا واعجبها هواء فلورنسا فأقامت فيها مدة تعرفت في اثناها بأسرة مؤلفة من اب وام وولدين ذكر وانثى وكان عمر الغلام عشر سنوات واسمه بيترو وعمر شقيقته ثماني سنوات . ورأت الكنتية ان هذه الاسرة مع ضيق ذات يدها تعيش عيشة صفاء وسرور غير ان الاب كان يأسف دائماً لعدم تمكنه من تعليم ولديه كما يجب وعدم مقدرته على القيام بنفقات المدارس . فلما عزم الكنتية على مغادرة تلك البلدة عرضت على الوالدين ان يسمحا لها بأخذ بيترو معها الى فرنسا حيث تودعه بعض المدارس العالية على نفقتها وتجنده ابناً لها . فانع الوالدان اولاً مدفوعين بعامل الحب والحنان ولكنهما اذعنا اخيراً لطلب الكنتية بعد ما اقنعتهما انها تحافظ على الولد كأنها امه وأنه لا يلبق بهما ان يجرما ولدهما الحصول على مستقبل مجيد لمجرد حبهما له وعدم الارتياح الى مفارقتها . اما بيترو فكان ميالاً الى السفر فساعد الكنتية في الالحاح على والديه واخيراً قبلوا فودعهما وزوداهم بركائهما وادعيتهما الحارة . واخذت الكنتية بيترو فبلغت به قصرها في باريس ثم ادخلته في مدرسة

عالية فكان يصرف فيها نهاره ويعود في المساء الى قصر الكنتة فمخسره بعين الام
الجنون وتلاحظه بنفسها . وكانت في اول الامر تكتب في كل شهر الى والديه عن
احواله ودروسه ثم زادت الفترات بين كتابة واخرى الى ان انقطعت الاخبار بين
الولد واهله تمام الانقطاع ولم يعد يعرف له اقرباء سوى الكنتة وكان ذلك ما توده
فانها كانت تبذل جهدها في جعل والديه ينسيانه لتختصه لنفسها ابداً . وكان يترو
يزداد بسطة في الجسم والعقل وكانت هيئته الملائكية تزيد جمالاً فيزيد حب
الكنتة له وهيامها به فلم تعد تطيق ان يبتعد عنها يوماً واحداً . ولما اكمل يترو دروسه
خيرته الكنتة في انتقاء العمل الذي يحب ان يتعاطاه فوجدت فيه ميلاً شديداً الى
التجارة فخصصت له جانباً من اموالها استأجرت له به محلاً وملائته بأصناف البضائع
فسر يترو سروراً عظيماً وايقن انه قد بلغ اوج السعادة والنجاح . اما الكنتة
فكانت تنتظر عودته كل مساء بشوق عظيم فتضمه الى صدرها ثم تجلسه بجانبها
فيقص عليها ما باع وما اشترى وكم بلغت ارباحه الى غير ذلك فتقابل به بتبسم الجنون
والاعجاب وتعلق هو ايضاً بها فكان لا يهتم من العالم بأسره سوى الكنتة أولاً
وتجارته ثانياً

واشتهر محل يترو ولا سيما في البضائع المختصة بالسيدات فتهافت المشترون
على محله تجذبهم اليه رقة المعاملة وجودة الاصناف . وكان ممن زار المحل لورنسو واماليا
بعد وصولهما الى باريس وقد اخذا اليه لينتقي لها بعض الملابس التي تليق بجمالها
الرائع ولا سيما لانه كان يتوقع ان يأخذها الى حضرة الامير قريباً . ولما دخل هذان
المحل رآهما يترو فما وقع نظره على اماليا حتى شعر ان سهماً قد اخترق فؤاده
فشخصت عيناه الى تلك الطلعة الهية وشعر بحرقان قلبه ولم يدر لذلك سبباً . ثم
تقدم بنفسه وقدم اليهما مطالوبهما وكان يخدمهما وهو مشرد الافكار كأنه آلة تعمل
بقوة محركة . ولما انصرفا رافقهما بنظره حتى اختفيا بين جمهور السائرين في ذلك
الشارع فماد الى كرسيه وغرق في تأملاته كمن تذكر شيئاً قديماً جداً لم يمتد الى معرفة
حقيقته . ثم جعل يتساءل عن سبب تأثره الشديد لدى نظره تلك الفتاة ولم ينتبه

الضياء

(٥٤٥)

لنفسه الا وقد خيم الظلام وجاء موعد اقبال المحل فخرج ذاهباً الى بيته وهو يتهدى في مشيه كالشارب الثمل

ولما بلغ يترو القصر وجد الكتبة في انتظاره وقد اقلعها تأخره بضع دقائق عن ميعاد مجيئه فاستقبلته كجاري عادت ولكنها رأت في وجهه انقباضاً وفي عينه شروداً لم تعهدهما فيه من قبل فاضطربت افكارها وعلمت انه قد طرأ عليه طارئ . ثم طوقت خصره بذراعها وقادته الى غرفتها حيث بذت وسعها في استنطاقه الى ان اخبرها بسبب اشتغال باله . فحفظت عينها ووثبت من جانبه كاللبوة اذا اصابها رصاصة الصياد واحتبس لسانها هنيهة عن الكلام ثم قالت ويك يا يترو الا تحشى بعد كل ما فعلته معك ان تمبل الى فتاة لم تنظرها في حياتك الا مرة واحدة فنسيك التي ربتك وكانت سبب قيام حياتك . قال كلا لن تحول هذه ولا سواها دون اعتباري لك وطاعتي اياك يا مولاتي ولكنني لا اعلم ما الذي حرك عواظي لدى رؤية هذه الفتاة فكانني اتذكر انني رايتها قبلاً بل قد رأيت في عينيها ما داني على انها تستجير بي من خطرٍ يفاجئها . فتبسمت الكتبة وقالت لا بأس وقد صار من الواجب اذا ان ارافقك ايضاً الى محل شغلك واسهر عليك فلا ادع قلبك المتناهي في الخنو يذوب شفقة على كل عابر سبيل لا تدري له اصلاً ولا فصلاً

وفي اليوم الثاني ذهبت الكتبة حقيقة مع يترو الى محل شغله فلم تفارقه طرفة عين ولبثت من ذلك الحين لا تنفك عن ملازمته نهائياً وليلاً وهي تغار عليه من الهوآ اذا هب في وجهه او من شعاع الشمس اذا اشرق عليه

وبعد اسبوع عادت الفتاة اماليا يصحبها لورنسو الى المحل لا يبيع حاجات اخرى ولم تكن الكتبة تعرفها انها هي سبب انقلاب يترو فلم تعابها وظهر يترو مزيد التجلد والاحتراس ولكنه احتال فادخل ورقة صغيرة كان قد كتبها قبلاً في جيب ثوب ابتاعته اماليا . وكانت هذه قد اصابها ما اصاب بترو عند اول نظرة ولكن لم يكن لورنسو كالكتبة فلم يهيمه شيء من امرها . ولحظت اماليا حين ادخل يترو يده في جيب ثوبها فما صدقت ان بلغت البيت وخلت بنفسها في غرفتها حتى اخرجت تلك

الرقعة فوجدت مكتوباً عليها بخطٍ دقيقٍ جداً ما يأتي . « ايها السيدة . ان قصدي شريف وغايتي حميدة . فاودَّ ان تأذني لي في مقابلتك لان عندي شيئاً احب ان اقولهُ لك غير اني اؤمل في حكمتك ان تبالي في التحرز لانه يوجد شخص يسعى في عدم اتصالي بك ويبدل نفسه ان لزم دون اجتماعنا »

وكانت اماليا تقرأ وصدرها يرتفع وينخفض ثم جثت ثانية وقالت اللهم سهل ان يكون الفرج قريباً . ثم مسحت الدموع من عينيها واعادت تلاوة الورقة فقالت لا ريب ان الشخص الذي يمنع هذا الفتى من مقابلتي ينبغي ان يكون تلك السيدة التي كانت ترمقي شزراً وعيناها لا تكادان تفارقانه . ثم فكرت في اخفاء الورقة فتارة تضعها في صدرها وطوراً تخرجها واخيراً رأت الافضل ان تحرقها وتخفي اثرها فادنتها من شمعة كانت متقدة بجانبها فالتهمت النار واصبحت راداً فذرتهُ مع الهوآء . وبعد تفكير قليل اخذت ورقة صغيرة وكتبت عليها اسم الشارع الذي هي فيه ورقم المنزل ثم كتبت « اكون وحدي كل يوم من الساعة الثامنة صباحاً الى الظهر » وادعت رسالتها في الجيب المعهود ولما عاد لورنسو كلفته ان يرجع الثوب الى المخزن لاجراء بعض الاصلاحات فيه فاخذهُ وانصرف

ولما رأى يترو لورنسو عائداً بالثوب خفق قلبهُ وما صدق انه صار بيديه حتى مدَّ يدهُ واخرج تلك الرسالة سرّاً ثم تنحى الى حيث قرأها بدون مراقبة احد فطارت نفسه شعاعاً . وفي اليوم الثاني ارجع الثوب الى صاحبه وقد وعدا ان يزورها في اول يوم يجد فيه لذلك سبيلاً

وفي ذات يوم طرأ على صحة الكتبة انحراف الزمها البقاء في فراشها فاطهر يترو شديد الاسف وعرض عليها ان يبقى بجانبها فابت واما صدق ان خرج من القصر حتى اخذ يقفز كالطبي وتوجه توجاً الى البيت الذي ذكرته له اماليا وكانت تجلس يومياً امام نافذتها . فلما رأتُهُ قادماً خرجت لاستقباله تم دخلت به الى غرفتها ولما استقرَّ بهما الجلوس قال يترو عفواً يا سيدتي اذا كان فيما فعلته ما يوجب لك انزعاجاً لكنني مذ نظرتك اول مرة قرأت في عينيك شيئاً واحب ان اتحققهُ فهل صدق

الضياء

(٥٤٧)

ظني وهل لك من حاجة في اخ يبك ويذل نفسه في سبيل رضاك . فقالت الفتاة وقد صبغ الحباء وجهها اني يا مولاي في اشد الحاجة الى من اتمكن من اطلاقه على حالتي والانتفاع بمشورته ومساعدته ولا سيما وانني منذ ثماني سنوات متغربة عن اهلي في اسر امر من الموت وانا لا مشير لي ولا معين . وبعد حديث قصير اخذت اماليا في قصص حديثها فقالت كان ابي فقير الحال ولكنه كان يحب اولاده حبا شديدا ورزقه الله اياي واخا اكبر مني واضطرت الاحوال والذي ان يرضى بمفارقة اخي له وبقيت وحدي مع والدي فاصبحت سلوتهما وغاية مناهما . ولما عض الفقر والدي وقع في هم عظيم ولكنه تعرف برجل يدعى ساندو كان يتردد الى بيتنا فكان يسلف والدي مبالغ من المال يأخذ بها اوراقا منه فأصبحنا بأجمعنا غرق معروف هذا الرجل . ولما اثقل كاهل والدي الدين ولم يكن له ما يفي اقبلت جودة ساندو الى شراسة وحشية وتهدد والدي بان يتكوه الى الحكم وما وراء ذلك الا الموت في السجن . وبعد محاورات عديدة ومباحث شتى قبل ساندو ان يتنازل لوالدي عن دينه بشرط ان يستأثري ويجعلني ابنة له . ولا تسلم عما اثر هذا الامر في نفس والدي ولكنه لم يكن لها مندوحة عنه فاعطيني لساندو وسافر بي تاركا اياهما في اشد حالات اليأس والحزن وقد فقدوا كل عرا ولم يبق عندهما من يلطف شيئا من اشجانهما . اما انا فصبرت على ذلك شفقة على والدي وانا اظن ان غمه لبعادي لا بد ان يكون اقل من غمه لو بقيت وحكم عليه بالسجن . ولكنني علمت بعد ذلك ان ساندو نخاس يتاجر بالفتيات وانه انما اسلف والدي تلك المبالغ بغية ان يدرك غايته وانه يعتقد بعد حصوله علي انه لا بد ان يصادف لي سوقا رائجة فيبيعني بما يعوض عليه اضعاف ما اعطاه لوالدي . ثم اوصلني ساندو الى بلاد لا اعرفها وكان يعتني بزيوتي وتهذيبي مدة هذه السبع السنوات وهو يتهددني يوميا اذا مرقت من طاعته ويعدني بالخير ان اذعنت لمشيئته . وفي ذات يوم دخل علي مسرورا وقال ان عميله في باريس كتب اليه يطلبني لأمير من اشرف أسر فرنسا وانه تقدمه على حساب مشتري مبلغا وافرا من المال . فوقع في حيص بيص

ولكنني لم اقل من رحمة الله وسافر بي ساندو الى مرسيليا حيث استقبلني عميله لورنسو الذي رأيته معي واحضرني الى هنا حيث لا ازال مسجوناً يمنعني التهديد والوعيد عن ان ابوح لمخلوق بجائتي او ان اسعي في النجاة . وقد ساعدني القدر بان مرض الامير الذي احضرني لاجله وهذا ما عاق لورنسو عن تسليمي اليه حتى الآن وكان ييترو يشرب حديث اماليا شرباً وهو في تأثر عظيم ثم قال لها ومن هم اهلك وقد ذكرت ان لك اخاً افلا تعرفين مقره . قالت لا وانما اعرف ان سيدة غنية اخذته لتربيه في فرنسا وتبناه اما اسمه فبترو واسم والدي ارمان لوللو وهو يسكن مع والدي في فلورنسا . وكانت هذه الكلمات كجراح كهر بائية اطلقت على ييترو فتشجعت اعصابه وتفاصت عضلاته وصار كمن هو في حلم ثم قال نفسه وهجم على اماليا فأخذها بين ذراعيه يقبلها ويصيح قائلاً لم يخطئ ظني

وغرف ييترو شقيقته نفسه فكادت تجن من شدة الفرح وما تمهل ان استوقف عربة ركبها واماها وتوجهها الى قصر الكتنة . فلما رأتهما هذه يدًا بيد طار رشدها وصاحت بييترو آه يا لثيم قد اغتيمت فرصة غيابي لتزور هذه اللعينة وما كفالك ذلك حتى احضرتها لتدنس بوجودها قصري . فتبسم ييترو واقترب من الكتنة يسكن روعها ثم اطلعها على الحقيقة فلم يسرها هذا الخبر كثيراً ولكنها سكنت جأشها لعلها ان ييترو لا يزال خالياً ولن يفارقها

واستقدم ييترو والديه من فلورنسا فكان اجتماعهما بولدهما دواءً شافياً ردت حياتهما من حافة القبر وارجع اليهما النضارة والشباب وسكنوا جميعاً في قسم من قصر الكتنة ولبتت الكتنة متعلقة بييترو الى مماتها واوصت له بجمع مقتنياتها اما ساندو ولورنسو فكان ييترو قد اعلم الحكومة بأمرهما فاخفيا وهما يندبان اخفاق مساعيهم ولم يوقف لهما بعد ذلك على خبر

